نـافـذة

ألمٌ بلا أنين

لعبة عضّ الأصابع حياة مقابل حياة، ووجود مقابل وجود، هل نقف متفرجين أمام كل هذه الحرائق؟ من يطفئها، ولماذا اشتعلت، ومن أجل ماذا؟ الأفضل أن نسأل لماذا أشعلوها، وعن الكيفية التي يتم بها إخمادها، ما ينشئ المزيد من الأسئلة، أهمها الموت من أجل الموت، من يحيا، من ينجو، من يموت، من يصل الآخرة، كي يسكن الجحيم، النار، ويكون وقوداً للدرك الأسفل منها؟ أو يدخل جنان الخلد بآثاره التي أنجزت لحظة أن كان حياً، يحيا الحياة بلا انتظار، أعباء مذهلة يتحملها تراب أرض البشر الذي نَدبٌ عليه، ينادي: متى ينهمر المطر؟ ثقة لمن تمنح؟ وقبل ذلك من أين نستمدها؟ من يحق له العطاء من خلق للطيران؟ لن يتقبل الزحف، ومن خلق ليزحف لا يحق له الطيران، كيمياء تحتاج إلى طرفين، كي يكون هناك قادم جديد، اثنان زائد واحد ينتجان نتيجة، وهما طرفان، ما يعني أنّ واحداً زائد واحد يساوي اثنين، كيف بذرتي هيدروجين وذرة أوكسجين تعطي الماء، محتمٌ أنّ علاقةً كهذه تستحق الانتباه، واخترت هذه المعادلة لأنها تعني الحياة.

الحياة لا تموت، وكذلك هو حال التاريخ الذي يعمل جاهداً على تراكم المعرفة بأحوال الأمم والشعوب والدول، لذلك هو أيضاً لا يموت الأحياء، الذين يحيون بينهما يموتون، لأن الموت يمثل الحقيقة الفريدة التي يستطيع الإنسان الوصول إليها، يذهب إليها هادئاً، أو تخطفه صاخباً، أو ينهيها بإرادته، وهذا نادر حدوثه، يتألم التاريخ ومعه الحياة، يراقب الزمن الأحاديث المتصلة التي لا تنقطع عن صدامات حضارية ومواجهات ثقافية ومناقشات حادة بين عالم الشمال وعالم الجنوب، بين الروحي والمادي، والتراجعات الهائلة أمام مبادئ تكافؤ الفرص والعدالة والقانون وتطبيقاته، لا حياة، ومهما كانت ميزاتها من دون وطن، ومن دونه يكون الموت أرحم، لأنّ أفراده أبناؤه المرتبطون فيه، مهما حققوا من حضور خارجاً عنه، فما يطلق عليهم أنهم أجانب أو مجنسون مهاجرون، لاجئون، مشردون، فالأوطان حقائق، وليست أفكاراً، لأنها تجسد اتحاداً، لا انفصالاً أبدياً بين الجغرافيا والإنسان، كما هو حال الوليد وأمه والجذور وتشبثها في أماكنها التي تتشكل من هذه العلاقة الهوية المسكونة في الأعماق البشرية، كالتاريخ الموغل في القدم والمنتظر للإنجاز، تستدعيها الأمم والشعوب والأفراد، تحقق معها الآمال المنشودة حاضراً أو في المستقبل، تشكل لها حمايات عبر الأصالة والتراث ضمن مجموعات الحداثة.

محاولات تجري بقوة لتقسيم المقسم وتجزئة المجزأ، عناوين ومصطلحات تبث وتنثر هنا وهناك الحرية، العبودية، الاستعمار، الديكتاتورية، العنصرية، الرأسمالية، ناهيك عن الأديان ومشتقاتها التي لا تعد ولا تحصى، كل هذا يحدث برأيكم من فراغ، مؤكد أنه يجري ضمن ترتيبات دقيقة، الثابت فيها يشير إلى تدمير البقايا الإنسانية التي لم تقدر بعد على تلبية مطالب حركتي التاريخ والمستقبل اللتين يشهد عليهما الزمن، الذي يسعى دائماً لتحقيق عملية التوازن الطبيعي، وأهمها البيئي الذي يشكل موضوع المقارنة الدقيق بينه وبين البشري المتعدي عليه، ما يفقده قوته، ومعه تفقد البشرية الباحثة عن التماسك من أجل البقاء، وهذا يأخذ بنا لفهم قوة الضغط الهائلة التي تمارسها المجتمعات، القوة في كل شيء على المجتمعات الباحثة عن القوة، والضعيفة في كل شيء، هذا يشير إلى الصمت القادم من البحث والضعف، وهنا نريد أن نؤكد ضرورة ربط التجربة بالواقع والبحث عن نتائجها.

هل المجتمعات من أنجب السياسة أم العكس؟ ومن ثمّ، هل الألم منتج من كليهما أم من أحدهما؟ هذا المولود الذي من دونه كيف كانت الحياة البشرية، وهل السياسة مسؤولة عن إنتاج وتفعيل المقدس والمدنس وإدارة المال؟ هل يمكن أن نتصور أن الحياة من دونه بلا تاريخ، بلا سياسة، بلا أديان، كيف كنا لنكون، وهل كنا لنسلك مسالك السلوك؟ هل نتفكر في سيادة العقل وسيطرته على كل شيء؟ وهل يستطيع العقل تجريد الجسد من آلامه ومعاناته من معاركه اليومية من إيمانه أو يقينه بأنه لابد من مفارقة هذه الحياة، مهما كان شكلها، أو مصنف ضمن جدولها، لذلك ينبغي على جميعنا أن نتفكر بأسباب وجودنا، ولماذا نحن مختلفون في المظهر، وموحدون في الجوهر، وفي نظم التفكير، وفيما نعتقد أن كل هذا التنافس لم يكن إلا من أجل أن ننسى الحقيقة، ويكون ذلك بالعمل، ومعه يكون النجاح والفشل، الفوز والخسارة، التقدم والتقهقر، الثبات والتحول، كل هذا يخص الإنسان فقط، لأن الطبيعة لا تحيا لذاتها، فالأنهار لا تبتلع مياهها، بل تبحث عن طريق وصولاً إلى البحار متحدةً فيها. والأشجار لا تأكل ثمارها، بل تقدمها هديةً من أجل استمرارها. والشمس تلتهب إشراقاً على الحياة، لا لذاتها. والقمر ينار من أجل أن ينير ظلمات الضالين، لغاية اكتشاف سبلهم.

حالات أبدية يتوقف عندها البشر، وحدهم يفعلون كل ما يخالف ذلك، فإذا كان قانون الطبيعة بكل ما فيه مع محيطه الكوني يعمل لأجلنا، فكيف بنا لا نكون سبباً لإسعاد حياتنا بدلاً من حمل الآلام، أو تحميلها لبعضنا.

لننظر في الذي حدث بعد تشتت منظومة الإنسان وتحولها إلى قبائل وشعوب وأمم، وتراجع القواسم المشتركة فيما بينها بشكل مريع، وبين إنسانيتها وبشريتها وانهيار قيمة وقوة الاهتمامات المشتركة، وتحول الأفعال البشرية إلى إنجاب الآلام الأكثر حدةً، ما زاد في فرقتها، وعزز فرص اقتناصها واغتصابها لبعضها، وهدمها لكياناتها، وأهمها هدم الفكر والذات، فظهرت التحديات الجمة حول الحماية وتأمين الذات والكيان وتطوير القوى المادية، بدلاً من البحث الجدي حول التخلص من الآلام المباشرة أولاً، والاتجاه لغيرها لاحقاً.

لنتذكر ونتحاور، كيف أنّ العقل البشري غدا ضحيةً للأديان والأيديولوجيات ومنظومة القيادات السياسية اللاهثة وراء المادة بشكل جشع وبلا وعي؟ إلى أين.. لا يسأل؟ المهم الوصول إليها والحصول عليها.

لنتفكر في الاختلافات والانقسامات والمنتجات المادية التي راكمت الخوف بدلاً من تبديده وإحلال مكانه الحب للحياة وللكينونة التي تنهي آلاماً مضافةً على آلامه الذاتية التي يسمع أنينها، أما آلام الحياة الكبرى وهي الأخطر؛ أي آلام الفكر والتفكر والإبداع والإنتاج والتأمل والإصلاح وإعادة الأخلاق أو تطويرها، فهي بلا أنين، وفيها الأمل بالوصول إلى مجد الإنسان الذي وجد ليتربع عليه.

من أين يحضر الأنين الصامت؟ من الخوف الذي يرسم في العقل أرهب النهايات، وبشكل خاص عندما يكون غامضاً ومتبعثراً ومسيطراً من دون أسباب ملموسة، وإذا كان شعار زمننا الراهن الخوف من كل شيء، وهو يحيط بكل شيء، فكيف بنا نتقدم إلى المستقبل؟ وكيف بنا نتخلص منه؟ هل يتم ذلك بتحرير العقل من كل الذي سرنا به، لنصل إلى نتيجة أن شكم الطبيعة وإخضاعها بغاية التحكم بها لن يحصل، لأننا كلما استهلكناها، نستهلك معها، وتزداد معاناتنا، وتتفاقم آلامنا، ومعها سينفجر أنيننا الصامت، فإلى أين؟ إلى اللعبة المستمرة التي أجزم أنها لن تنتهي، لتبقى الحياة مقابل الحياة، واحدة معروفة، والثانية مجهولة، يملؤها الخيال والأحلام بالجنان، والخوف من النار ألم بلا أنين، حالة فكرية أدعوكم للتوقف معها وفردها على طاولات البحث من أجل الغد.

د. نبيل طعمة

رحلة الموت ... أوروبا والكنز المفقود

الهارب إلى الخلوة كي يتحدث مع نفسه بأفكاره

السويد: وسام حمود

الهجرة إلى الغرب البعيد، ليست بأمر غير مألوف، فسجلات التاريخ مليئة بأنماط وأنواع مختلفة لهذا المصطلح الموجع، الذي لا يدرك نكهة مراره إلا من خاض غمارها..

الحرب في سورية، أطبقت على أنفاس أهلها، فجنح الكثير من أولادها باتجاه الهروب من الموت، الذي تعددت أشكاله، وألوانه، وألعن لون فيها، الفقر الذي أفرزته طاحونة الحرب... كغيرنا من الناس خوفنا مشترك من أزيز الرصاص، وصوت القنابل التي تجعلك ترتجف كما طفل يُحملُ عليه كرباج، بل خوفنا على أطفالنا كان المحرك الأساس لاتخاذ قرار لم نوقن حجم الثمن، الذي سنسطره في صفحات عمرنا...

أسنقتل وتسرق أعضاؤنا ويتاجر بنا كل أهل الأرض أم يكتفى بالمال؟

بداية الرحلة..

يقال... البدايات دائماً جميلة، ولكن هنا نقول البداية مقلقة، يكسوها ضباب مخيف ليس لأنك في داخله فقط بل لأن كثافته تجعلك غير قادر على التكهن متى ينقض عليك وحش بشري يدعى مهرب ليسرق منك ما تحمله في جعبتك من مال استلفته من عشرة أشخاص كي تصل لبر الأمان، ووعدك لهم أني حينما أرتب أموري سأعيده لكم مع باقة شكر... بعد رحلة قصيرة تصل إلى تركيا وأنت تعد نفسك بأن تدلعها بكل ما للكلمة من معنى نتيجة القهر الذي تجرعته، فأنت لن تقبل أن تقيم مع عشرة أشخاص بغرفة واحدة وأنت الهارب إلى الخلوة كي تتحدث مع نفسك لتشاطرك أفكارك، لتوبخك مرة، ولتخفف عنك تارة أخرى، ولكن حين تصل تفاجأ بأن لا مكان تخلد إليه، وأن كل الفنادق في إزمير التركية مكتظة بالهاربين لدرجة تقول في نفسك.. أهلا بك في إزمير السورية.. الفنادق في أزمير طوابيرها كما طوابير الخبز والماء تذكرك فورا في حرب الثمانينيات في بيروت، والمناطق المنكوبة في سورية حتى أصحاب الفنادق لم يدخروا مكانا إلا وزرعوا فيه الهاربين من الموت حتى الحدائق تم استثمارها، فتوزعوا على أرضها بفراشهم بطريقة مرتبة يخيل إليك أن سجانا خبيرا قام بتركيبهم كما قطع الدومينو، أو البزل..

مر نهار كامل ومع بزوغ الفجر وفقنا في غرفة صغيرة أشبه ما تكون بصندوق الدمى، لا بأس كلها يومان ونغادر مجرد محطة، أطلت الشمس الصباحية والمخطط الإستراتيجي عن كيفية مسير رحلة اللجوء منع النوم من الزيارة، وما هي إلا ساعات حتى طُرق باب الغرفة، مع رسالة من صاحب الفندق تفيد بإخراجنا من الغرفة أو زيادة الأجار، فالجميع يعلم أن كل لاجئ في أي بلد يدفع فاتورة أخرى، فهو عرضة للاستغلال الذي مللنا من ذكره، وسرد أساليبه، بقينا في مكاننا كي لا تأكل شوارع أزمير من طاقتنا... وتستهلك ما تبقى من أمل في صدورنا...

مر أسبوع لا شيء فيه، سوى أنك أصبحت ذا خبرة عالية في خبايا فن التهريب، والمهربين فأنت في اليوم تلتقي عشرات المهربين، والسماسرة، كي تختار ما هو آمن أو كما نقول ابن حلال، إضافة للسعر الذي يناسبك، وطبعاً الأسعار ألف دولار وما فوق يرتفع وينخفض حسب سعر الدولار وأيضاً حسب نوع الوسيلة التي ستركب بها بلم، يخت، قارب صغير، والمضحك المبكي عندما تخاف على نفسك تقول أدفع المهم أن أصل حيا، تكتشف فيما بعد أنه لا يوجد يخت مجرد نصب واحتيال، وفي لحظة الحس الصحفي بدأ يلعب في واقعيتي وعقلانيتي التي تسلحت بها طوال الوقت، وراح يؤلمني، فالمافيات تلعب علنا في شوارع أزمير التركية، يبتزون الناس لعلمهم بظروفهم التي لا تسمح لهم بالبقاء أكثر، ناهيك عن أن المهرب يعلم متى يحرك زبائنه من الهاربين فهو على تنسيق بكل لحظة مع رؤوس كبيرة في المافيا التركية، وخفر السواحل، ولكن لقناعتي أن لا جدوى جلست مع المهرب على طاولة المفاوضات، وناقشت خريطة الطريق التي سنسلكها، وأيقنت التالي... في أزمير التركية لا مجال لأي انتفاضة...

تم الاتفاق، وبالأصح عقدت الصفقة، جُمعنا في ساحة أزمير، لتنطلق بنا فيما بعد سيارات معدة لنقلنا إلى المكان الذي سنغزو من بعده بحر إيجه..

الثالثة فجرا، وصلنا منطقة خالية تماما من الحياة، لا يوجد فيها سوى بناء هيكل عظمي، طلب منا الاختفاء تحت جدرانه الشبه آيلة للسقوط، مع صمت مطبق، ومئتي بشري وعشرات الأطفال، لا نسمع سوى أصوات شهيقنا وزفيرنا الممزوجة بنوبات الخوف المبعثر في المكان، خوف من العتم في أرواحنا، ووميض نظرات تخترق بعضها رغم السواد الذي يلفنا... أفكارنا كانت مشتركة، هل سنقتل وتسرق أعضاء أجسادنا، أم سيكتفون بسرقة ما نحمل من النقود القليلة، أشباح أفكارنا منعتنا من سماع صوت أحد الرجال يأمرنا بالتحرك باتجاهه، ولكن حدة نبرته عندما كرر النداء جعلتنا أمامه كما صف العسكر.. خطواتنا كانت تداعب الأرض وكأننا نطير كي لا يصدر أي صوت ينبه الأمن التركي على وجودنا، ما جعل الزجاج المحطم تحت أقدامنا يئن ألماً فهو وحده شاهد على مصيرنا، الصوت الصادر عن الزجاج حتى اللحظة يبكي في أذني كنوتة موسيقية حزينة مجهول مبدعها، حفرت في روحي.. والمدون الوحيد لآخر خطواتي وطفلي قبل رحلة الغموض، هو وحده فقط شعر برقص مفاصلي على الأرض، هو وحده كان يشعر بارتجاف أبهري..

شاحنة كبيرة كانت في استقبالنا، لم تكن مجهزة بالورود، رائحة علف المواشي أبلغتنا أين سيكون مقامنا التالي..

اعتلينا شاحنة البعير التي استقبلت مئة وخمسين بشريا، اعتليناها ونحن نرى فيها المنقذ الذي سيتجه بنا نحو الخطوة الأخيرة، التفكير العني، العقل مخدر، أغنام، ماعز، بقر، كل ذلك ليس مهما فلا مجال للتراجع... عشر دقائق، الأوكسجين غادر الشاحنة ملوحا لنا بيديه، فالشاحنة مخمرة بنقاب أخضر سميك تحجبنا عن الرؤية، استنجد الركاب فنزل السائق ورفع نقاب مدللته، وعاد الأوكسجين بكامل أناقته حتى ظننا أننا سنتقاتل من أجله..

الشاحنة تشق طريقها دون هوادة، لا نعرف أين نحن من الكرة الأرضية، والسرعة التي يقود بها السائق لم نلمه عليها، مسكين فهو معتاد على أن يقود بعيرا فقط، فهو لا يعلم أن المطبات والحجارة التي يمر من فوقها قد مزقت أمعاءنا، كل هذا لا يهم لأن المطبات الهوائية التي بدأت تجتاحنا أنستنا مطباته الرقيقة، فالبرد أرسل نفحاته الثلجية إلى رؤوسنا، فتسللت إلى أرواحنا وزرعت اليباس فيها، ووجوه الركاب كانت قريبة من بعضها لدرجة التلامس، وهذا جعل الكثيرين يتعانقون بمعطف واحد، والبعض تقاسم الثياب التي كانت مرتبة في الحقائب، وسيئ الحظ من اختفت حقيبة ترحاله بين الأقدام..

ساعات تسع مرت كما لم يمر وقت آخر، حياتنا كانت مسلسلاً كاملاً بكل تفاصيله، في تلك اللحظة فقط أدركنا، كنا سعداء.. يا الله نعم كنا سعداء، لم يقطع حلقات المسلسل سوى اصطدام العظام ببعضها فوقنا، فقد وقع عشرات الشبان الذين فضلوا أن يبقوا واقفين طوال الرحلة، على أن تجلس النساء والأطفال على أرض الشاحنة، التصادم كاد أن يودي بحياة الجميع، ولكن تكاتف الأيادي وعملية الإنقاذ السريعة، أمضت ما تبقى من وقت دون ضحايا.

وصلنا.. التوقف المفاجئ للشاحنة أخبرنا بذلك، فتحت الأبواب، بدأنا بالقفز الجماعي، غابة واسعة تطل على شاطئ بحر واسع عميق، هادئ كما طفل هدهدت له أمه ترجو الله أن ينام..

ساعات ثلاث ونحن لا نعلم من ننتظر، مسيرون، ننتظر أمراً، قراراً، نطقاً بالحكم، هل هذا هو الشط الذي سنغزو من بعده أوروبا، تساؤلات كثيرة عربشت على خلايا دماغنا، أنهكته...

خرق تفكيرنا عثماني طاعن في السن، ذو شاربين عريضين، يحمل بيمناه عصا يحركها بكل الاتجاهات، ما هذه العصا، آه إنها لنا..

بدأت عصاه بعدنا، وكنا نعد وراءه، قام بإحصائنا، ليأتي رجل آخر فيتشاركا معا بتقسيمنا لمجموعات، كي نوزع على البلمات التي ستشق بنا عرض البحر، طبعا بات الجميع يعرف البلم هو القارب المطاطي الذي يتسع أقصى حد لتسعة أشخاص، وفي رحلة الموت، يصعد إليه ما مايقارب الخمسين راكبا وأكثر..

أنزل ركابنا البلم الخاص بنا إلى المياه، عداد الوقت أعلن بداية ربما النهاية، وبدأت عصا ذلك التركي تصفعنا بسرعة جنونية، وكأننا خراف مزرعته، ويريد لملمتنا في الزريبة قبل أن يسدل الليل ستائره، انصعنا للأوامر فلا مجال للعب معه، أو الرد عليه، فهو سينهال عليك ضربا مبرحا، دون الاكتراث، ويعلم أن لا أحد سيتجرأ للدفاع عنك، فالجميع همهم الأكبر الهرب، هنا لا للكرامة.

بدأنا النزول في المياه، دوامة البحر، غدر البحر، البحر مالح، البحر خائن، فوبيا البحر، أكره البحر، كل هذه المصطلحات طرقت باب دموعي، سقطت وصغيري في الماء، ضاع طعم دموعي، لم أعد أعرفها فملوحة وعمق بحر إيجة كان أوسع من بوابة حزني..

مركبنا أي البلم كان محظوظا، ربما هي رحمة السماء، عددنا سبعة وعشرون شخصا، إضافة إلى السائق الذي هو طبعا عبارة عن راكب، يقود البلم ويجازف بأرواح من معه مقابل ألا يدفع قرشا واحدا، فسعر الراكب ألفان ومئتا دولار أميركي، إذا مغامرة مائية بامتياز، مرهونة بالحظ...

متليني في الانتظار

انطلق المركب، بعد أن رمينا خلفنا حقيبة ملأى بالذكريات، وصورا تحكي مجدا، فرحاً، قصة حب، نجاحاً، وأحلاماً مبتورة، وشتلة ياسمين، وبعضاً من روح..

انطلق المركب ولم نحمل معنا إلا طوق النجاة البرتقالي، لأنه الوحيد الذي سيدل علينا إذا ما تطفلنا على المياه الهادئة وشربنا منها حتى تخمة البطون..

رفض مركبنا متابعة الطريق وقد أصبحنا في عرض البحر، يبدو أنه أكثر جرأة منا ولكن، لا إمكانية أبداً للعودة سباحة، فالأغلبية لا يعرف اللعب مع الماء، خاصة الأطفال، الخوف بدأ يتسلل كما لص محترف، الصراخ رفيق النساء، والبكاء ربيب الأطفال، اتحدوا في المركب معا، ليضخوا إحساساً رهيباً لم نعرف مذاقه من قبل، يشبه معنى أن تلامس الموت قبل أن يقترب هو منك، تنظر في الوجوه، تستغربها، تتساءل، هل من المعقول أن هذه الملامح الجميلة ستغدو وجبة سريعة للأسماك، هل هذه الدموع التي تنبض من هذه العيون الحية، ستجف ويختفي بريقها، أفكار تصارعك وتصارعها في لحظات، والنتيجة لا غالب ولا مغلوب.

دار المحرك، انقبضت القلوب أملا، تغيرت الملامح وكأن رساما ماهرا أعاد في ثوانٍ تشكيلها من جديد، أصوات الضحك، والفرح، التكبير غزت صدر البحر، إذا سار المركب وأصلح العطل وسبب الخلل، أن السلك أو الوصلة التي تضخ الوقود للقارب تالفة، والمهرب يعلم بالأمر ولم يعطى تنبيها أو إنذاراً لنتدارك المصيبة في وسط البحر، أحد الشبان وجد المشكلة وتبرع طوال الوقت بالإمساك بذاك السلك التالف والضغط عليه كي لا يهرب منه الوقود إلى أن نصل بسلام، وكان ذلك...

سكون تام تخترقه تمتمات النساء التي تعبر عن فوضى ورعب بداخلهم، فهم محاطون بالبحر، ويلتحفون السماء، واليابسة أمام عيونهم تناديهم، فالمسافة قصيرة جداً ولكن اجتيازها في هذا القارب، وتلك المياه كفيل بعدم الوصول حتى لو كانت أمتاراً بسيطة..

خُرق الصمت، اقتحام بحري غير متوقع، لانش تركي سريع كما البرق، لم يمنعه عن اصطيادنا سوى صراخ الأطفال، وعويل النساء الذي كاد يقسم سطح البحر، ارتجفت السماء من تكبيرات النجدة، حتى رجالنا لم يكونوا كما خبرناهم، موجع الخوف في عيون الرجال، تقهرني كأنثى دموع الرجال، تذبحني كأمرأة انكسارات الرجال، ولكن هنا تتحد الذكورة والأنوثة في بلم واحد، ضجيج وتوتر، ونداءات، بكل اللغات، معنا أطفال، ومع ذلك لم يتوقف عن محاولاته إغراقنا، ارتفع منسوب المياه داخل البلم نتيجة رفعه للأمواج خلال حركاته الاستعراضية، ودون إنذار رمى علينا موجا عاليا نطقنا بعدها بالشهادة، وانصرف...

لم نستوعب أننا لا زلنا خارج أعماق البحر، ولم نكف عن التساؤل... هل تعاطف معنا، خاصة أنه شاهد جنون أطفالنا ونحن نصارع الموت، ولكن اكتشفنا أننا تجاوزنا المياه الإقليمية التركية، ودخلنا المياه اليونانية، ولا يحق له اعتراض طريقنا..

إذا الحظ كان حليفنا وللمرة الثانية تجاوزنا العقبات وبات أمامنا أمتار بسيطة، ونرسو على رمال جزيرة متليني اليونانية...

جزيرة متليني تمد لنا يديها، الفرحة في الصدور كفرحنا بنصر على الذئب الذي التهم فلسطين، وكأننا أخرجناها من جوفه كاملة لا ينقصها إصبع، ولكن رحلة الدراما لم تكتمل فصولها بعد، عرفنا أنه يجب أن نثقب البلم قبل وصوله لشط الجزيرة بمترين كي لا يعيدنا الخفر اليوناني إلى تركيا، ولكن أحد الشباب المتحمسين ثقب البلم قبل وصوله بأكثر من عشرة أمتار، فنزل معظم الركاب تحت الماء، منهم من أكمل سابحا للشط، ومنهم من احتاج مساعدة، ومنا من بقي في البلم فهو لا يعرف السباحة ولم يجد من يسبح به، لحظات جنون فظيعة تجف الأقلام ولا تعطيها حقها في الوصف، في منتصف البحر والبلم يوشك على الغرق أشعلت سيجارة، وفي اليد الأخرى أمسكت بطفلي، وذهبت لمكان حتى اللحظة لا أعرف أين كنت، استيقظت على أصوات العديد من الشبان وهم يجدفون بنا نحو رمال متليني، وكان ذلك..

عانقنا رمال جزيرة متليني، انتصرنا على الموت في إيجه، عناق الحياة، بكاء النجاة، مشاعر سُطرت وحُفرت على رمال متليني هذه الجزيرة الشاهدة على مئات الأسماء، هذه الجزيرة كتبت روايات لأرواح ليست من ورق، هذه الجزيرة سجد على رمالها كل الواصلين، وبعثر رمالها براحتيه قهرا وحزنا، وألما، كل الخاسرين لأحبتهم، مياه متليني معجونة بدموع، ودم، وقهر، وانكسار، نحن وصلنا أحياء، نعم أحياء، ولكن الخراب الذي يستوطن أرواحنا بحجم السماء، خراب في حواسنا، في أنفاسنا، في سلوكنا، جزء منا وهو الجزء الكبير، ليس في وطننا فحسب، بل خسرناه على الطرقات باتجاه بلاد الغرب، جزء كبير من أمالنا وأحلامنا تحطم على الدروب، وجزء أحرقته الحرب وأتلفته، أخذنا قرارا ومشينا بحزم اتجاهه، وخضنا تجارب وليالي موجعة، لنصل ونكتشف أن أوروبا ليست جزيرة كنز، ولا مدينة الأحلام الجميلة، ولا بلاد الرفاهية، بل هي بلاد اجترار الآلام والذكريات، وبلاد لن تغنينا أبدا عن نسائم بلادنا... أوروبا والكنز المفقود... خيبة كبيرة بحجم الأرض...

لماذا ينتحر الشعراء والمبدعون؟

د. رحيم هادي الشمخي

التاريخ الإبداعي زاخر بالانتحارات الشهيرة التي بقيت محافظة على غموضها وسرها، فالموت الغامض المفاجئ طال أدباء وشعراء ومثقفين عرباً وعالميين كُثراً، حيث يصعب على الكثيرين منهم مغزى أو تأويل مسبباته رغم المحاولات المتكررة في فك طلاسم هذه الحوادث، وإذا كانت هذه الظاهرة بدأت خجولة منذ العصر الجاهلي، حيث لا تقع أيدينا إلا على القليل منها، ولاسيما قبل بداية القرن العشرين، إلا أن الباحثين يشيرون إلى أن انتحار (طرفة بن العبد) و(عمرو بن كلثوم) وثمة ترجيح بأن يكون (أبو حيان التوحيدي) قد فعل ذلك، ومع هذا فقد حفل القرن العشرين بالكثير من الأسماء العربية اللامعة في مجال الأدب والشعر والإبداع أقدمت على هذه الخطوة، أما عالمياً فقد شهد القرن العشرون الكثير من حوادث الانتحار التي امتدت من الشرق إلى الغرب، كان أبطالها شعراء وروائيين ونقاداً ومثقفين.

فقد أحصت الكاتبة اللبنانية (جومانة حداد) في كتابها الموسوم (سيجيء الموت وستكون له عيناك)، انتحار نحو ١٥٠ شاعراً في القرن العشرين بينهم ١٥ شاعراً عربياً.

عبد الباسط الصوفي

خليل حاوي

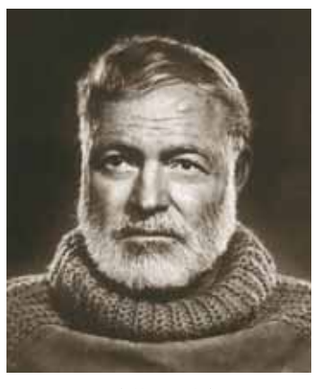

إرنست همنغواي

وإذا عدنا إلى التاريخ فثمة من الدارسين من يقول إن طرفة بن العبد وعمر بن كلثوم وأبا حيان التوحيدي انتحروا، وهنا لم يختلف النقّاد بخصوص هذا الموضوع كثيراً، مؤكدين أن انتحار الشعراء والمبدعين في الأغلب يكون مدعاة للحزن، لكونهم أكثر الناس حساسية، متهمين عشرات الأسباب التي تقف وراء ذلك والتي تأتي الأسباب الاجتماعية والنفسية على رأسها، حيث يعيش الشاعر وطموحاته وتطلعاته التي يرجو تحقيقها، لكن أياً من تلك الطموحات تصطدم بالواقع المرير وهو ما يؤدي إلى دخول الشاعر والمبدع بحالة من الإحباط والاكتئاب الشديد.

إن موضوع الانتحار لدى الأدباء والمفكرين العرب كظاهرة معاصرة لم تكن في العصور القديمة بهذا الشكل الذي نجده الآن كما يقول المفكر العربي الدكتور محمد جابر الأنصاري: (إن النزعات الانتحارية لدى المبدعين العرب موجودة باعتبارهم من أكثر الشرائح ميلاً للانتحار من أجل القضية لغلبة الجانب المبدئي القيمي على تكوينهم وتفكيرهم ويشبههم بالرهبان البوذيين الذين يشعلون النار في أنفسهم للاحتجاج على الظلم أو للتنبيه إلى قضية عادلة).

ونجد هنا أن الانتحار هو حالة سيكولوجية لا غير، فلماذا يتحول أحياناً إلى حالة خاصة ومجال للتأويل الفلسفي؟ هل انتحار الأدباء أو المبدعين بتعبير أشمل وأدق يمنحه تعريفاً آخر؟..

لقد انتحر كتّاب ومثقفون ومبدعون أمثال (عبد الباسط الصوفي، وخليل حاوي، ومهدي راضي السعيد، وأبو السعود، والشرنوبي، وصلاح جاهين، وتيسير السبول، والروائي يوكيو ميشيما، والشاعر سيرغي بسينين، وآرنست همنغواي، وغيرهم)، والموت الغامض المفاجئ طال كتّاباً وشعراء عالميين كثراً، منهم شاعر الثورة البلشفية (فلاديمير مايكوفسكي) صاحب (غيمة في بنطلون) الذي فضل أن يضع حدّاً لحياته بطلقات من مسدسه داخل غرفته عندما كان برفقة حبيبته، قبل ذلك قال جملته المشهورة: (زورق الأحلام اصطدم وتحطم) لعل موته الفعلي كان منذ كتابته هذه الجملة.